المقتطف

الجزء الاول من المجلد الثامن والخمسين

١ يناير (كانون الثاني) سنة ١٩٢١ — الموافق ٢٢ ربيع الثاني سنة ١٣٣٩

فلسفة الجمال

ما هو الجمال . ما هي حقيقتهُ . لماذا اهتمَّ الناس في كل عصورهم بالتحلي والتجمل فلبسوا الحلى والحلل وغالوا في زخرفة مساكنهم ومعابدهم وفي عمل التماثيل الانيقة لمعبوداتهم

الظاهر ان اليونان فاقوا غيرهم من الاقدمين في محبة الجمال وعرفان مقوماتهِ كما نعرفها اليوم فابدعوا فيما نحتوهُ من التماثيل وبنوهُ من الهياكل ولكن لم يصل الينا كلام لهم في تعريفهِ وذكر مقوماتهِ قبل ايام سقراط . ولعلَّ سبب ذلك ان فلاسفتهم اهل النظر فيهم لم يشرعوا في تدوين الحقائق العلمية واستنتاج النتائج الكلية منها قبل زمان بركليس الذي نشأ في القرن الخامس قبل المسيح . اما تماثيلهم وآثار مبانيهم الباقية من ذلك العهد وقبلهُ وبعدهُ فقد بلغت من الاتقان والجمال في نظر الامم البيضاء مبلغاً لا زيادة عليهِ لمستزيد

انظر الى تمثال الاهة الجمال عندهم المعروفة بزهرة ملو المحفوظ في اللوفر بباريس وهو المرسوم ههنا فقد كنا نسمع عن جمالهِ الباهر وكنا نظن ان في الوصف مبالغة الى ان وقفنا امامهُ وشخصنا اليهِ . لا شبهة ان اقوال الواصفين اثرت في نفسنا ولكنها لم تكن لترينا المعاني التي رأيناها في ذلك الوجه الصبيح الجامع بين الحلاوة والبساطة والمهابة والجبين المشرق بنور البهاء فيشفُّ عن عقل رزين قوامهُ السكينة والذكاء والعينين النجلاوين حيث يتلألأ نور الطهارة والوقار . والفم المصوغ على المثل الامثل من صور الافواه كلها والقد الجامع لادق التفاصيل

التشريحية في اصح الابدان بنية . هنا الكمال الانساني هنا الجمال النسائي في اعتدال القد ومعاني الوجه وعواطف النفس . هنا براعة الفن اليوناني الذي لا يزال آية الجمال وسيبقى من معجزات الصناعة على مر الدهور . ولقد نسينا اوصاف الزهرة الاهة الحب حين رؤية هذا التمثال ورجحنا انهُ لالاهة اخرى من الاهات المعاني السامية التي تخيلها اليونان كالحكمة والحرية والظفر لا الاهة جمعت بين الجمال والطُهر والعفة لا شيء فيها من التبذُّل الذي اشتهرت بهِ الزهرة الاهة الحب

او انظر الى تمثال ابولون المعروف بابلون بلفيدير المحفوظ في رومية فتجد وصفهُ العالم الالماني انكلمان بما خلاصتهُ « انهُ من التماثيل القليلة التي نجت من ايدي البرابرة وهو اجملها هيئة وارفعها هيبة واحكمها صنعة واتقنها دقة فكان النحات الذي نحتهُ افرغ الصورة الخيالية التي ارتسمت على ذهنهِ فيما لا يزيد من المادة على اظهار تصوُّرهِ . فهو يفوق كل تمثال صنعهُ النحاتون لهذا الاله كما ان وصف هوميروس لهُ يفوق كل وصف وصفهُ بهِ من تلاهُ من الشعراء . فالعظمة بادية على كل جسمهِ والشبيبة تسطع من قدهِ فهو بربيع شبابهِ لجنة النعيم بربيعها الازلي .... فما نظرت الى هذه المعجزة الاَّ اذهلتني عن العالم وما فيهِ ورفعت مداركي الى ما فوق الطبيعة ... افريدة الفنون كيف الوصول الى وصفكِ بما انتِ فيهِ وكيف يجترىء قلمي على اظهار محاسنكِ ان لم تنزل الفنون عليَّ حكمتها وترشد يراعي فيما يخطهُ . امعجزة الزمان وبهجة الفنون هذه اسطر خطتها يميني طمعاً في وصفكِ ولكن لم تستطع التعبير عن يسير مما يهيج عواطفي ويحرك اشجاني فانا اطرحها على قدميك كالذين كانوا في زمانهم يأتون الآلهة بالاكاليل فيطرحونها على اقدامها لعجزهم عن البلوغ الى رأسها » . والوصف مسهب تجدهُ كلهُ في مقتطف مارس من المجلد الحادي عشر الصادر سنة ١٨٨٧

اما اقوال اليونان في الجمال فمبنية على انهُ صفة خارجة ملازمة للشيء الجميل . وما تأثيرهُ في النفس الاَّ امر ثانوي لانهُ (اي الجمال) شيء قائم بذاتهِ اثَّر في النفس او لم يؤثر فيها او هو شيء فوق الطبيعة . ولهم فيهِ مذهبان مشهوران المذهب المنسوب الى ارسطوطاليس وافلاطون والمذهب المنسوب الى فلوطينوس الاسكندري او المذهب الافلاطوني الجديد

لم يصل الينا كتاب خاص كتبهُ افلاطون او ارسطوطاليس في الجمال ولكن

لها فيهِ اقوال متفرقة فيما نُسب اليها او نُقل عنها من الكتب وخلاصتها ان الجمال على نوعين مادي وادبي فالجمال المادي يقوم بالانتظام والانسجام او بالمعنى المستفاد من الانتظام والانسجام . ومن ذلك القول المنسوب الى ارسطوطاليس وهو ان الجميل لا يكون مفرط الطول ولا مفرط القصر بل هو وسط بين طرفين. وفنون اليونان في نحت التماثيل وبناء الهياكل تؤيد ذلك لان اساسها كلها الانتظام والانسجام فترى التمثال من تماثيلهم يمثل هيئة جسم الانسان تماماً شاباً كان او كهلاً او شيخاً ذكراً كان او انثى. ويمثل ما يراد وصفهُ بهِ من مهابة او بسالة او ذكاء او ترفُّع او تبذُّل او غير ذلك من الصفات . وترى الهيكل من هياكلهم وجدرانهُ وابوابهُ وكواهُ قائمة على اشكال هندسية تامة واعمدتهُ منسوقة في اوضاعها واشكالها كانها مفرغة في قالب واحد حتى لقد ظن البعض ان القدماء كانوا يذيبون الصخر ثم يسبكون الاعمدة منهُ. وكذا نقوش الجدران والاعمدة فانها منطبقة على امثلتها الطبيعية تمام الانطباق من اغصان وازهار واثمار فترى الدوالي منها بتضبانها واوراقها وعناقيدها وعساليجها واذا تناولت الحيوانات فانها لا تتعدى فيها شكلها الطبيعي باوضاعها المختلفة . وقد برعوا في ذلك حتى عبَّروا باشكال ما نحتوهُ او نقشوهُ من الصور البشرية عن معاني النفس التي تتجلَّى في الوجه والقد والقامة كما تقدم في وصف تمثال الزهرة وتمثال ابرلون

واذا ارادوا تمثيل حادثة او معركة رسموا ما فيها من رجال وحيوانات باشكالها واوضاعها الطبيعية على اسلوب غاية في الاناقة كما ترى في الرسمين التاليين المنقولين عن النواويس التي وجدت في مدينة صيداء ونقلت الى الاستانة . فالاعلى منهما صورة احد هذه النواويس وجليهِ رسم معركة اسوس التي تغلب فيها الاسكندر على جيوش الفرس . والنظر الى صورة هذا الناووس ونقشهِ البديع يغني عن الوصف . والاسفل صورة جانب آخر مكبرة قليلاً في جنب الصورة الاولى . وهي تمثل اناساً من فرسان اليونان والفرس يصيدون الاسد وكل ذلك آية في الاتقان

اما الجمال الادبي فقالوا فيهِ انهُ الصلاح كالفضيلة والحق والعلم والفضل . نعم ان ارسطوطاليس حاول مرة الفصل بين الجمال والصلاح . وفصل افلاطون بين

الجمال والحق . وقال كلاهما ان الجمال يولد اللذة في النفس ولكنهما لم يفصلا نوع هذه اللذة

وفلوطينوس Plotinus صاحب المذهب الثاني فيلسوف يوناني نشأ في الاسكندرية في القرن الثالث المسيحي حينما كانت الاسكندرية لا تزال مركز دائرة العلم والعمران . وكان اكبر زعماء المذهب الافلاطوني الجديد ومن اكبر انصار الزهد والفضيلة حتى كانهُ من زهّاد الصوفية . وقد فصّل آراءهُ في كتاب ممتع خص الفصل الاول منهُ بالجمال فانتقد الفلسفة المتقدمة وقال انهُ اذا اشترط في الجميل انتظام اجزائهِ وانسجامها فكل جزء منهُ ليس جميلاً لانهُ غير مركب واذا كانت الاجزاء غير جميلة فلا يتركب من مجموعها شيء جميل . واستطرد الى ان الجمال شيء حقيقي قائم بنفسهِ لانهُ صادر من الصلاح المجرّد اي الخالق وكل ما صدر منهُ جميل ثم تسلسل بعضهُ من بعض فقلّ جمالهُ بالابتعاد عن مصدره

وآراء فلاسفة القرون الوسطى في الجمال مدارها على انهُ مبني على امر داخلي وهو الشعور باللذة من رؤية الشيء الجميل وعلى امر خارجي وهو الانتظام والانسجام كما في مذهب افلاطون وارسطوطاليس وعلى ارتباط الصفات الخارجية بالتأثير الداخلي

وتعددت الاقوال والمذاهب في القرنين الاخيرين فلا يسع المقام تفصيلها فندعها ونلتفت الى ما يشعر بهِ كل احد من استحسان او استهجان ونبحث عما يُحتمل ان يكون سبباً طبيعياً لهذا الاستهجان وذاك الاستحسان فنقول

انظر الى ازياء النساء من الطبقة العليا والوسطى التي تتغير الآن كل سنة او كل فصل في تفصيل الثياب وعقص الشعور وشكل البرانيط ونوع الاحذية والجوارب . فكلما ظهر زي جديد بعيدٌ عن المألوف كالتنور الواسع من اسفله . والاكمام المنفوخة فوق الاكتاف . والقبعات العالية الى الاذنين . والتنانير الضيقة التي تكاد تمنع لابستها من المشي . والخصور الثخينة التي عقبت الخصور الضيقة . والثياب القصيرة التي عقبت الثياب الطويلة الاذيال . واشكال البرانيط التي بعد ان كانت حواشيها منحنية الانحناء الهندسي الجميل يغطيها ريش النعام معها فيهِ من العلاقة بالظفر والجمال صارت قفصاً من الخوص تكبُّ على الراس حتى تغطيهُ وتغطي اكثر الوجه . فان كل زي من هذه الازياء كان الاكثرون يرونهُ قبيحاً

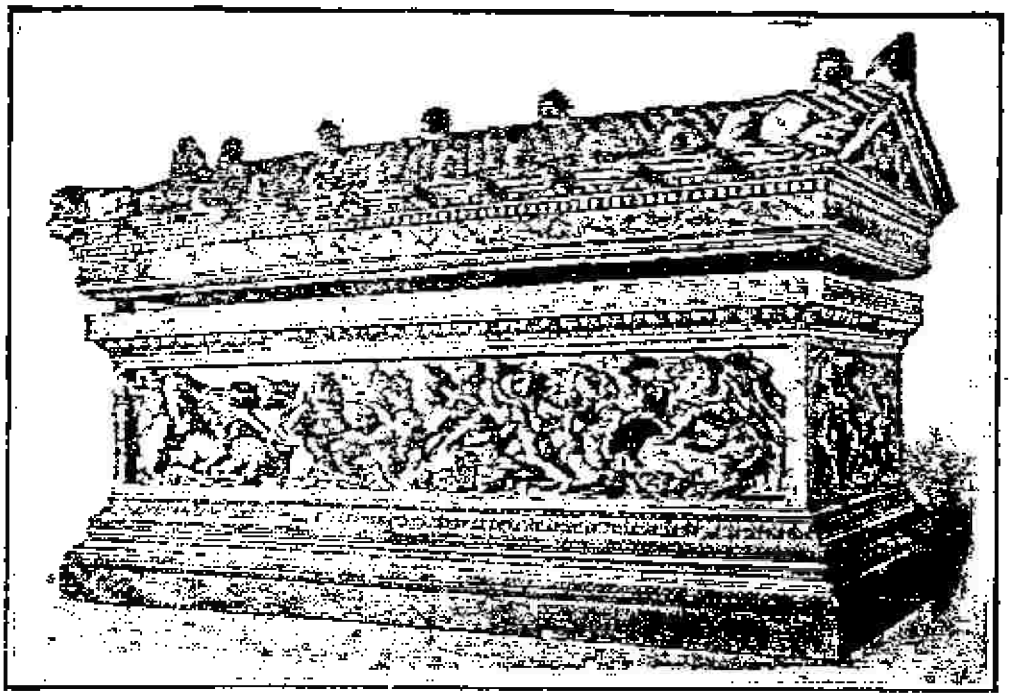

صورة ناووس من نو وس صيداء وعليه رسم معركة اسوس

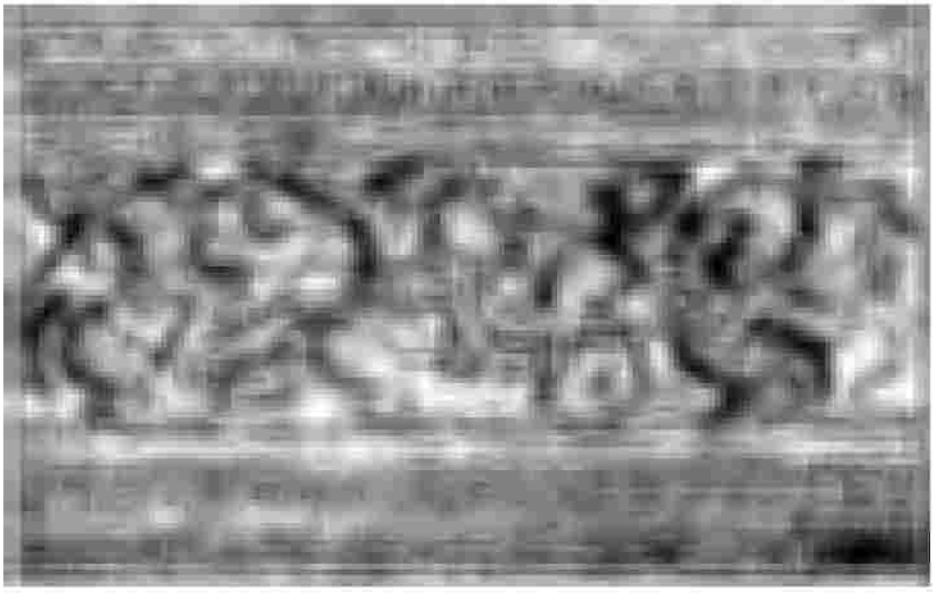

جانب ناووس وفيه صورة فرسان اليونان والفرس يصيدون الاسد

مقتطف يناير ١٩٢١

امام الصفحة ٤

عند اول ظهوره ثم تألفهُ العين رويداً رويداً ثم تستحسنهُ ولاسيما اذا رأت الحسان يتبسنهُ فتعلق منظرهُ بمنظرهن فتستنبط لهُ حسنات تشفع بهِ . او اعتبر ما نشعر بهِ حينما نأكل طعاماً مخالفاً في طعمهِ كل المخالفة لما اعتدنا اكلهُ . فالسوريون الذين نزلوا هذا القطر استبشعوا طعم الملوخية حينما اكلوها اول مرة وكرهوا طعم الجرجير وحسبوهُ من انتن البقول . ثم لما رأوا كل احد يستطيب طعمها وكرروا الاكل منهما الفوهما وصاروا يستطيبونهما كاطيب المآكل . والانكليز والاميركيون الذين اتوا المشرق وذاقوا الزيتون اول مرة تأففوا كارهين ثم الفوهُ رويداً رويداً وصاروا يستطيبونهُ . وكذا مدخن التبغ فانهُ يكرههُ في اول الامر ويشمز بالدوار والغثيان ثم يألفهُ حتى يسير التدخين من لوازم معيشتهِ . وقارىء اشعار النابغة والبحتري تمام والمتنبي وامثالهم من ارباب القريض قد لا يفهم لها معنىً في اول الامر فيستثقلها وينبو عنها ثم اذا كرَّر قراءتها وتفهَّم معانيها بمساعدة الشروح والقواميس وسمع الناس يمدحونها ويشيرون الى ما فيها من ضروب البلاغة الفها وصار يرى فيها ما يراهُ غيرهُ فيستحسن ما كان يستهجنهُ ويرتاح الى تلاوتهِ ويطرب . ومن هذا القبيل اختلاف الامم في تأثير الانغام . سمعنا بالامس بربرياً يقرع طبالتهُ قرعتين متكررتين لا ثالثة لهما وهو يهزُّ رأسهُ طرباً واخوانهُ البرابرة يطربون لهذا القرع المتوالي ونحن كادت آذاننا تتمزَّق . كنا في صبانا نتردد على عائلة اميركية اتت حديثاً الى سورية وكان جلوسنا في غرفة لها كوة تجاهها مأذنة يؤذن فيها رجل مشهور برخامة صوتهِ وحسن تأديتهِ فكان كلما ابتدأ باذانهِ الظهر او العصر تنهض صاحبة البيت وتقفل الكوة قائلة ان صوتهُ يخدش اذنيها مع انها موسيقية وكنا نحن نخرج الى شرفة امام الغرفة لنسمع الآذان لشدة ما نسرُّ بهِ

والامثلة التي من هذا القبيل لا تحصى مما يدلُّ على ان سبب الاستحسان والاستهجان ليس شيئاً ثابتاً قائماً في الشيء المستحسن او المستهجن بل هو شيء متغير قائم في نفس المستحسن او المستهجن . ونحن نرى ان هذا الشيء قائم في الدقائق العصبية التي تتأثر بالمؤثرات الخارجية من منظور ومسموع ومشموم وملموس ومذوق وايضاحاً لذلك نقول

اذا قامت امرأة تمشط شعرها بعد ان خرجت من الحمام وشعرها منفوش معركس مشتبك بعضهُ ببعض فانها تتألم في اول الامر لان المشط يقتلع بعض الشعر ويجذب بعضهُ جذباً عنيفاً مؤلماً . واذا استمرّت حتى سرّح شعرها كلهُ زال الالم وصارت تشعر بشيء من اللذة . ويظهر من بعض المباحث الفسيولوجية ان دقائق الدماغ التي تتأثر بالمؤثرات الخارجية وتنقلها الى مراكز الشعور تقاوم هذا التأثير اولاً كما يقاوم الجسم الساكن كل حركة تحاول تحريكهُ . وهذه المقاومة تؤلم او لا تسرّ لانها تزيل بعض القوة وازالتها من قبيل الشعور بالالم ولكن المؤثر الذي يؤثر فيها يحركها في جهة المراكز العصبية التي تشعر بذلك التأثير . فاذا تكرّر حدوثهُ قلّت مقاومة الدقائق العصبية لهُ رويداً رويداً لانهُ يجدها قد صارت منتظمة مستعدة لقبولهِ كما ينتظم الشعر المسرّح امام المشط وهناك الارتياح والانبساط

ثم ان المؤثرات الجديدة اذا تكررت يوماً بعد يوم وعاماً بعد آخر وتوالت على مرّ القرون رسخ اثرها في الاعصاب وانتقل الى النسل بالوراثة . ومن هذا القبيل الاميال الجنسية فانها اقدم الميول كلها لانها تشمل انواع الحيوان والنبات بل قد تكون منها الالفة الكيماوية التي بين عناصر الجماد . ومن هذا القبيل ايضاً استحسان الصفات الادبية كالشجاعة والسخاء والايثار على النفس والترفع عن الدنايا لانها كلها مناقب قديمة استفاد منها نوع الانسان فارتاح اليها اذ انتظمت في اعصابهِ الدقائق التي يمرّ تأثيرها فيها بسهولة حتى كأنها صارت تنتظرهُ كما تنتظر المعدة الطعام

ومن هذا القبيل ايضاً استحسان الاشكال الهندسية وكل ما فيهِ انتظام وانسجام . واستحسان البيض لما يعدونهُ جميلاً ولو استقبحهُ السود . واستحسان السود لما يعدونهُ جميلاً ولو استقبحهُ البيض . ومنهُ استحسان ما الفتهُ عيون الناس مدة ازمان طويلة كقص الشعر في تمثال الزهرة واسدال قصائبهِ على الصدغين كما ترى في صورة الابنتين المتقابلة . الى غير ذلك مما يصعُب منهُ ولا يعدّد . حتى قيل ان انبساط النفس الى اللون الاحمر موروث من حين كان اسلاف الانسان يسكنون الغابات ويقتاتون بالاثمار الحمراء

صورة اختين

مقتطف يناير ١٩٢٩

امام الصفحة ٦